

الجزء ١ كانون الثاني سنة ١٩٢٢ م الموافق ٣ جمادى الاولى ١٣٤٠ هـ المجلد ٢

فاتحة السنة الثانية

بسم الله وعليه الاعتماد

نستفتح من الله سبحانه باب التوفيق والاعانة. ونفتتح العام الجديد بالحمد لجلاله على ماوفقنا اليه من اتمام السنة الاولى بالجهد المستطاع في خدمة الامة والوطن واللغة. مع مااعترض في سبيلنا من عقبات التأسيس التي لابد لكل ابتداء منها. ولاسيما أن مجلتنا هي الاولى من نوعها في بلادنا. وتخدم في مباحثها اللغة العربية وآدابها. وتوثق عرى الارتباط وتبادل الافكار بين علماء المشرقيات وعلمائنا. والتراسل بين مجامعهم ومجمعنا.

ولنا الثقة أن يتحفنا أرباب الفضل والعلم بكثير من مباحثهم في هذه السنة مما لايخرج عن خطة المجلة لننشرها على صفحات مجلتنا مع الشكر لهم.

وعسى أن نتوفق الى اتقان العمل وتكثير الفوائد ولاسيما اذا شد أزرنا اهل الادب بما يفيد اللغة العربية من نتائج افكارهم وآثار اقلامهم.

فنسأل للغة العربية أن يعلي الله منارها ويكثر أنصارها ليكونوا عوناً لنا في ماتوخيناه. ولنصيب الغرض الذي قصدناه. والله حسبنا ونعم الوكيل

الاعلام بمعاني الاعلام

٤

الأبجر : البجرة بالضم السُّرة من الانسان أوالبعير عظمت ام لا والعقـــدة في البطن والعنق وسمي بها جماعة منهم عبد الله بن عمر بن بجرة ، اسلم يوم الفتح . والباجر المنتفخ الجوف والابجر الذي خرجت سرته والعظيم البطن وحبل السفينة وفرس عنترة بن شداد وسمي به عدة منهم ابجر بن حاجر سمي بالابجر حبل السفينة كذا يفهم من التاج ومتنه وهو ايضاً لقب خدرة جد القبيلة المعروفة من الانصار وبجير كزبير اسم لعدة من الصحابة وغيرهم منهم بجير بن زهير أخو كعب الشاعران المجيدان وهو تصغير ابجر كدريد تصغير ادرد.

استطراد

يقال حدثته بعُجَري وبُجَري أي أطلعته من ثقتي به على معايبي وأصل العجر العروق المتعقدة في الجسد والبجر العروق المتعقدة في البطن خاصة وقال الاصمعي : العجرة شيء يجتمع في الجسد كالسلعة والبجرة نحوها فيراد اخبرته بكل شيء عندي لم استر عنه شيئاً من امري وقال ابن الاثير : العجرة نفخة في الظهر فاذا كانت في السرة فهي بجرة ثم ينقلان الى الهموم والاحزان اه ومنه مايروى عن علي رضي الله عنه انه طاف ليلة وقعة الجمل على القتلى مع مولاه قنبر فوقف على طلحة بن عبيد الله وهو صريع فبكى ثم قال عزعليّ أبا محمد ان اراك معفراً تحت نجوم السماء الى الله اشكو عجري وبجري اي همومي واحزاني .

ابرهة : تسمى به جماعة منهم ابرهة بن الحارث الذي يقال له ذو المنار وهو احد التبابعة ملوك اليمن وإنما قيل له ذو المنار لانه اول من نصب المنار في الطريق ليهتدي بها جيشه عند الرجوع من الغزو كما في كتاب اخبار اليمن وابرهة ايضـــاً ابن الصباح من ملوكهم وهو صاحب الفيل المذكور في القرآن كذا في التاج وفيه نظر لان ابرهة بن الصباح هو من ملوك التبابعة الاقدمين وليس هو بصاحب الفيل المذكور في القرآن وانما صاحبه ابرهة الملقب بالاشرم وهـــو الذي خلف ارياط الحبشي في ملك اليمن قبيل البعثة المحمدية اه وانما اخرت ذكره هنا لاني رأيت بعض العلماء وفيهم ابن

دريد يقول ان هذا الاسم حبشي اي فلا اشتقاق له وهو عندي بعيد لان المسمى به عربي محض فاخذت في البحث عن هذه المادة فوجدت في القاموس البره محركة الترارة (اي امتلاء الجسم من اللحم ومنه البرهرهة وهي المرأة البيضاء الشابة الناعمة وبره الرجل كفرح برهاً وبرهانا كلاهما بالتحريك ثاب جسمه بعد علة وابيض وهو ابره وهي برهاء وابره الرجل اذا اتى بالبرهان او اتى بالعجائب وغلب الناس اه فلم لايكون مأخوذاً من احد هذه المعاني وزيدت فيه التاء ولعل الذي دعاهم الى القول بانه حبشي انه اسم ابرهة خادمة النجاشي التي اسلمت وكانت صحابية كما انه اسم لابرهة الاشرم الحبشي .

احجن : بنو احجن بطن من خزاعة واشتقاق احجن من الاذن الحجناء وهي المعوجة وطرفها الى القفا وكل شيء عطفته فقد حجنته وبه سمي المحجن وهي العصا المعطوف رأسها كذا في ابن دريد وفي القاموس شعر احجن متسلسل مسترسل رجل جعد الاطراف .

احنف : الحنف محركة الاستقامة وبه فسر قوله تعالى ملة ابراهيم حنيفاً وقال الراغب هو ميل من الضلال الى الاستقامة ويطلق أيضاً على الاعوجاج في الرجل وهو ان تقبل احدى ابهامي رجله على الاخرى أو أن يمشي على ظهر قدميه من شق الخنصر أو ميل في صدر القدم أو هو انقلاب القدم حتى يصير ظهرها بطنها وقد حنف كفرح وكرم فهو احنف ورجل حنفاء والاحنف لقب صخر بن قيس المكنى بابي بحر تابعي كبير لقب به لحنف كان به قالت حاضنته وهي ترقصه .

والله لولا حنف برجله ماكان في صبيانكم من مثله

والسيوف الحنيفية تنسب له لانه أول من أمر باتخاذها والقياس احنفي توفي بالكوفة سنة ٦٧ وقيل سنة ٧٢ وقال بعض المفسرين انما قيل للمائل الرجل احنف تفاؤلا بالاستقامة التي هي اصل معنى الحنف كذا يفهم من القاموس وشرحه .

الاخدر : اسم بطن من بطون السكاسك من اليمن وهو مأخوذ اما من خدر الليل وهو الظلمة أو من قولهم اخدر الاسد اذا دخل الاجمة فهو خادر ومخدِر ومخدّر وفرس كان في الجاهلية صار في الوحش فنسبت اليه الحمير الاخدرية اه من ابن دريد وفي القاموس والخدر الليل المظلم كالأخدر والمكان المظلم وفيه أيضاً مع شرحه وخدرة بلا لام حي من الانصار منهم ابو سعيد الخدري واسمه سعد بن مالك من مشاهير الصحابة وكان

من نجباء الانصار وعلمائهم توفي سنة ٧٤ وخدرة لقب الابجر بن عوف بن الحارث بن الخزرج وقيل خدرة اسم امه وهوالاصح لان لخدرة اخاً يسمى خدارة ومنهم أبومسعود الخداري الصحابي كما ضبطه ابن دريد وقال ابن اسحاق بل اسمه جدارة بالجيم المكسورة وضبطه السهيلي بضم الجيم وقال انه اخو خدرة في بني النجار اه ملخصا .

الاخرم : من الخرم وهو شق وترة الانف التي بين المنخرين والخرمة محركة موضع الخرم من الانف والخرماء الاذن المنخرمة أو المشقوقة أو المثقوبة أو المقطوعة فالاخرم مثقوب الاذن أو من قطعت وترة أنفه وجبل لبني سليم وآخر بطرف الدهناء اه من القاموس

أخزم : قال في القاموس الاخزم الحية الذكر قال شارحه نقله الجوهري ونقل عن الازهري انكار ذلك وذكر أيضاً في معانيه مالا يحسن ذكره وانكره الازهري أيضاً وفي اللسان انه قطعة من الجبل وفي القاموس وجبل قرب المدينة اه وهما اقرب الى التسمية مما ذكر أولاً وأبو أخزم الطائي جد حاتم أو جد جده مات ابنه اخزم وترك بنين فوثبوا يوماً على جدهم فأدموه فقال

ان بني زملوني بالدم من يلق آساد الرجال يكلم
ومن يكن درءٌ به يقوم شنشنة أعرفها من أخزم

كانه كان عاقاً لابيه وأصل معنى الخزم الشق خزم الشيء يخزمه شكه أي شقه والخزامة برة (حلقة) تجعل في أحد جانبي منخر البعير وقيل هي حلقة من شعر تجعل في وترة انفه يشد بها الزمام قال الليث ان كانت من صفر فهي برة وان كانت من شعر فهي خزامة وقال غيره كل شيء ثقبته فقد خزمته وسمي بخازم اسم فاعل من خزم عدة لايحصون كثرة وسموا أيضاً خزمة بالتحريك وهي خوص المقل واحدة الخزم بالتحريك قال في الصحاح شجر تتخذ من لحائه الحبال والخزام بائعه وسوق الخزامين بالمدينة معروف وتقدم أن اسم خزيمة مصغر خزمة عن ابن دريد وسموا أيضاً خزامة كثمامة رجالاً ونساءً منهن خزامة بنت جهم العبد ربه (من بني عبد الدار) صحابية من مهاجرة الحبشة ومخزوم أبو حي من قريش منهم خالد بن الوليد وبنو مخزوم أيضاً من عبس منهم خالد بن سنان كان نبياً في الفترة ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ذاك نبي ضيعه قومه ومنهم حذيفة بن اليمان وان كان معدوداً في بني عبد الاشهل من الانصار

كذا قال بن دريد وسموا المخزم ايضاً وهو المخزم بن سلمة احد بني مازن بن مالك .

الاخطل : من الخطل وهو استرخاء الاذن ومنه قيل لكلاب الصيد خُطُل هكذا قال ابن قتيبة في أدب الكاتب وهو لقب الشاعر المشهور المسمى غياث بن غوث المتوفى سنة ٩٠ قال ابن دريد وانما سمي الأخطل لسفهه واضطراب شعره هكذا قال الاصمعي والخطل الالتواء في الكلام يقال رمح خطل إذا كان شديد الاهتزاز وشاة خطلاء طويلة الاذنين اه وفي أمالي القالي انه انما سمي الاخطل لان ابني جعيل تحاكما اليه ايهما أشعر فقال :

لعمرك انني وابني جعيل وامهما لاستار لئيم

فقيل له ان هذا الخطل من قولك فسمي الاخطل والاستار اربعة من كل عدد قال جرير

ان الفرزدق والبعيث وامه وابا البعيث لشر ما إستار

اخفش : الخفش محركة صغر العين وضعف البصر خلقة أو فساد في الجفون بلا وجع ولا قرح أو أن يبصر بالليل دون النهار وفي يوم غيم دون صحو وطير الخفاش كرمان الوطواط الذي يطير في الليل سمي به لصغر عينيه وضعف بصره بالنهار كذا يفهم من القاموس والملقب بالاخفش من النحاة كما في طبقات النحاة اثنا عشر المشهور منهم ثلاثة شيخ سيبويه الذي يقال له الاخفش الاكبر وهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد من أهل هجر ومواليهم اخذ عنه ابو عبيدة وسيبويه وغيرهما ولم اظفر له بتاريخ وفاة والاوسط هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء النحوي البلخي أحد نحاة البصرة وهو تلميذ سيبويه وكان أكبر منه وهو الذي زاد في العروض بحر الخبب توفي سنة ٢١٥ والاصغر هو علي بن سليمان بن الفضل النحوي روى عن المبرد وثعلب وغيرهما توفي ببغداد سنة ٣٥٣

ومـــن معاني الاخفش ايضاً كما في التاج الذي يغمض اذا نظر وقال أبو زيد رجل اخفش اذا كان في عينيه قذى .

الاخنس : من الخنس وهو تأخر ارنبة الانف كما في شرح الحماسة وقال ابن دريد هو ارتفاع ارنبة الانف وفي القاموس وشرحه الخنس والخنوس والخناس مصدر خنس عنـه يخنس كيضرب ويخنس كينصر تأخر كانخنس واختنس وقال الزجاج في قوله تعالى لا اقسم بالخنس الجواري الكنس ان الخنس الكواكب كلها أو السيارة منهـا أو النجوم الخمسة زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد لانها تخنس احياناً في مجراها

حتى تخفى تحت ضوء الشمس وتكنس اي تستتر كاتكنس الظباء في المغار وهي الكناس وخنوسها أنها تغيب كا تغيب الظباء في كناسها وقيل غير ذلك والخنس محركة قريب من الفطس وهو تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الارنبة وقيل هو لصوق القصبة بالوجنة وضخم الارنبة وقيل هو تأخر الانف الى الرأس وارتفاعه عن الشفة وهو اخنس وهي خنساء وقيل الاخنس الذي قصرت قصبته وارتدت ارنبته إلى قصبته وقد سمي به جماعة من الصحابة وغيرهم منهم الاخنس بن شريق حليف بنى زهرة قال ابن دريد وانما سمي بالاخنس لانه خنس ببني زهرة يوم بدر فلم يشهد بدراً منهم أحد، وبالخنساء جماعة من النساء منهن خنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية اخت صخر صحابية شاعرة واسمها تماضر وتقدم بيان اشتقاقه في الكلام على مضر .

قيل إنه لم يكن في زمانها اشعر منها ولها مراث واشعار في أخيها صخر مشهورة شهدت القادسية ومعها اربعة بنين لها فلم تزل تحضهم على القتال وتذكر لهم الجنة بكلام فصيح فأبلوا يومئذ بلاء حسناً واستشهدوا فكان عمر رضي الله عنه يعطيها ارزاقهم اه ملخصاً وتوفيت بالبادية في خلافة معاوية رضي الله عنهما نحو سنة ٥٠ هـ

الاخيل : الذي فيه خال وهو الشامة السوداء التي في البدن يقال هو اخيل ومخيل ومخيول زاد الازهري ومخول اي كثير الخيلان وهي خيلاء والاخيل ايضاً طائر مشؤوم عند العرب يقولون أشأم من اخيل وهو يقع على دبر البعير ولذلك يتشاءمون به أو هو الصرد الاخضر أو الشاهين سمي به لاختلاف لونه بالسواد والبياض جمعه خيل بالكسر وفي التهذيب جمعه الاخايل وبنو الاخيل من بني عقيل بن كعب رهط ليلى الاخيلية وقد جمعته على الاخايل فقالت :

نحن الاخايل ما يزال غلامنا حتى يدب على العصا مذكورا

الادرم : بنو الادرم حي من قريش الظواهر وهم بنو تميم بن غالب بن فهر بن مالك قيل له الأدرم لأن أحد لحييه انقص من الآخر والنسبة اليه الأدرمي ويطلق الأدرم على المكان المستوي مجازاً كما في القاموس وفيه أن الادرم الذي لا أسنان له (اي كما أن متحطم الأسنان يقال له الأفرم) واصل مادة درم لمعنى الاستواء قال فيه درم الساق كفرح استوى والكعب والعظم واراه اللحم حتى لم يبن له حجم والأسنان تحاتت

ودرم البعير ذهبت أسنانه ودنا وقوعها ودرم القنفذ يدرم من باب ضرب درما قارب الخطو في عجلة ومنه سمي الرجل دارماً وهو دارم بن مالك بن حنظلة ابو حي من تميم كان يسمى بحرا فأتى أباه قوم في حمالة فقال له يا بحر ائتني بخريطة المال فجاءه يحملها وهو يدرم تحتها من ثقلها ويقارب الخطو فقال أبوه جاءكم يدرم فسمي دارماً لذلك ا هـ .

اذينة : كجهينة والد عروة بن اذينة الشاعر المشهور واسم ملك من ملوك اليمن قالوا هو تصغير أذن والاذن مؤنثة والتصغير يرد الاشياء إلى أصولها وقال الجوهري لو سميت باذن رجلاً ثم صغرته قلت اذين ولا تلحقه الهاء أي لأنه مذكر زال عنه التأنيث بالنقل فأما قولهم اذينة في الاسم العلم فانه سمي به مصغراً .

ارحب : قبيلة من همدان من اليمن وهناك أيضاً مخلاف باليمن تسمى باسم هذه القبيلة ومنه النجائب الارحبيات كذا في القاموس ويفهم من كلام الجوهري انها منسوبة الى بني ارحب لا إلى المكان وارحب أيضاً بلد على ساحل بحر اليمن بينه وبين ظفار نحو عشرة فراسخ كما في معجم البلدان وأصل معنى المادة الاتساع رحب الشيء ككرم وسمع رحبا بالضم ورحابة ورحبا فهو رحب ورحيب ورحاب بالضم اتسع كارحب وارحبه وسعه وقولهم في تحية الوارد أهلا وسهلا ومرحباً أي صادفت أو أتيت سعة ومكانا سهلا وأهلا فاستأنس ولا تستوحش قال العسكري أول من قال مرحباً سيف بن ذي يزن ورحب به ترحيباً دعاه الى الرحب والسعة وقال له مرحبا ورحبة المكان بتحريك الحاء وقد تسكن ساحته ومتسعه وقوله تعالى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت أي على رحبها وسعتها وأرض رحيبة واسعة وسمي بالرحبة عدة أماكن وقرى وسموا أيضاً رحبا ومرحبا كمعظم ومرحب كمقعد وأبو مرحب قال الجوهري كنية الظل وبه فسر قول النابغة الجعدي .

وبعض الاخلاء عند البلا ء والرزء اروغ من ثعلب
وكيف تواصل من أصبحت خلالته كابى مرحب

وهي أيضاً كنية عرقوب صاحب المواعيد الكاذبة كذا يفهم من اللسان والتاج وغيرهما ولعل عرقوباً كنى بذلك لكونه كان يكثر من قول مرحب .

للكلام صلة

سعيد الكرمي

أُحيحةُ بن الجُلاح (١)

دعيتم أيها السادة لاستماع محاضرة في موضوع تاريخي أدبي . وسيكون المحور الذي يدور عليه هذا الموضوع رجلاً من عظماء عرب الجاهلية اسمه (أحيحة بن الجلاح) .

وإذا كنتم أيها الاخوان لم تستعذبوا هذا الاسم فاني أرجو أن تستعذبوا المسمى . ويعجبكم ما أقصه عليكم من أخباره ومختلف أطواره .

نحن بصفة كوننا عرباً ولنا حرص على لغتنا وآدابها ينبغي لنا أن نتصفح اشعار عرب الجاهلية وما يؤثر عنهم من الأقوال والأمثال . وبذلك نفقه أسرار لغتنا وآدابها — وبصفة كوننا مسلمين يجب أن ندرس أخبار العرب التاريخية ، وأحوالهم الاجتماعية . لنعرف ماذا نسخ الاسلام من ذلك وغيره وماذا أبقى وقرر . وفي الكلام على (أحيحة) يمكننا أن نستخرج فوائد من كلتا الوجهتين : الوجهة اللغوية الأدبية ، والوجهة التاريخية الاجتماعية . وهو فوق ذلك يعطينا صورة للنوابغ الذين كان في وسع ذلك المحيط العربي الجاهلي أن يبرزهم للوجود .

إنكم ستعلمون من ترجمة هذا الرجل العربي — ان في تاريخ عرب الجاهلية رجالاً كثيرين ذوي أعمال عظيمة وهمم عالية كان الواجب أن يكونوا مشهورين بيننا لكنهم لم يرزقوا السعادة في الشهرة كما رزق غيرهم .

ينبغي أن لا تقل شهرة أحيحة عن شهرة أصحاب المعلقات الذين توصلوا بالشعر وخياله الى تداول أخبارهم فاشتهروا . أما أحيحة فاتكل على التاريخ في نقل خبره . وكثيراً ما يبطيء التاريخ أو يقصر في النقل . وان نسبة التاريخ إلى الشعر في نقل الأخبار كنسبة الابل الى الكهرباء والبخار . وقد ملت الاسماع ترديد ذكر أشخاص من رجال الجاهلية كأصحاب المعلقات وقس بن ساعدة وحاتم طي والنعمان ، أما مثل

---

(١) محاضرة الأستاذ (المغربي) التي ألقاها في بهو المجمع ليلة الجمعة في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ .

(أحيحة) فان اخباره لم تزل كمعدن ماس ، لم يمسه ماس ، ولم يضرب فيه بفاس .

موطن احيحة ونسبه : موطن أحيحة مدينة (يثرب) في الحجـاز ، وهي التي هاجر اليها نبينا محمد (صلعم) وعرفت بعد ذلك بالمدينة المنورة . وكان سكانها الاقدمون عمالقة ارسل اليهم موسى (ص) على ما قاله مؤرخو العرب جيشاً وامرهم ان لايستبقوا أحداً ممن بلغ الحُلم الا من دخل في اليهودية . فقاتلوهم وقتلوهم كلهم . لكنهم أبقوا على ابن ملكهم وكان شاباً من أجمل الناس ، فعادوا به اسيراً وكان موسى قد قبض قبـل قدومهم ، فقال لهم خليفته يوشع : من هذا الفتى ؟ فاخبروه خبره فقال لهم : ان هذه معصية ارجعوا عن أرض الميعاد . فرأوا أن يرجعوا الى البلد الذي فتحوه فعادوا اليه وأوطنوه

ثم لما حدثت في اليمن حادثة سيل العرم وجلا عنها سكانها الى شمال جزيرة العرب كان فيمن جلا بطون من قبيلة الازد اليمانية وهم الأوس والخزرج . فأموا يثرب ونزلوا فيهـا ، فقاومهم اليهـود في أول الأمر . فاستنصر الأوس والخزرج اليمانيين اخوانهم الذين نزحوا معهم إلى الشمال فاعانوهم عليهم ، واصبحت لهم العزة في يثرب . لكنه وقع الشقاق اخيراً بين الحيين الأوس والخزرج ، وما زالوا في حروب وكروب حتى الف الاسلام بينهم ، وامتنّ القرآن بذلك عليهم .

وكان (احيحة بن الجلاح) سيد قومه الأوس ، ولم يعرف الزمن الذي عاش فيه لكنه كان قبل البعثة بنحو سبعين سنة على الاقل كما سيأتي بيانه . أما اسمه (أحيحة) فهو تصغير (أَحة) بمعنى حرارة الغيظ التي يجدها الانسان في صدره . وقد قال ابن دريد في كتابه (الاشتقاق) انه تصغير (أحاح) وعلى هذا ينبغي ان يلفظ (احيّحة) بتشديد الياء . وليس كذلك اذ المشهور التخفيف ولا سيما أنه ورد اسمه في الشعر مخففاً كما سيأتي في مدح خالد بن جعفر له . والأح ايضاً مصدر (أح) اذا سعل . ولعل من قال (قح) اي سعل توهم ان (اح) محولة عن قاف كما يفعل في لغتنا العامية إذ تحول القافات الى همزات . او ان (قح) مختصرة من قحب بمعنى سعل ومن هنا سميت القحبة قحبة .

اما أبوه (الجلاح) فهو من الجلح ومعناه انحسار الشعر عن مقدم الرأس ويحتمل ان يكون من الجلاح بمعنى السيل الجراف وهو الذي يجرف كل شيء يصادفه امامه .

كان أحيحة ذا دهاء وعقل ، كما كان ذا جد وعمل . وقد توصل باخلاقه هـذه الى ان اصبح من نوابغ رجال ذلك العصر : فكان رجل حرب وكيد ، رجل ادب وشعر ، رجل مال واقتصاد ، رجل تنظيم وعمران . ونعني بالعمران العمران الذي تستطيعه بلاد الحجاز في ذلك العهد

احيحة رجل حرب وكيد : روى مؤرخو العرب ان تبّـع الاخير ملك اليمن واسمه (ابو كرب بن حسان) مرّ بيثرب قاصداً الشام والعراق فخلف فيها ابناً له ، ثم بلغه ان اهل يثرب قتلوا ابنه ، فكر راجعاً اليهم مجمعاً على استئصالهم . فنزل خارج المدينة في سفح احد . ودعا اليه أشرافها من الأوس والخزرج ، فقالوا فيما بينهم انه يريد ان يملكنا على أهل يثرب . أما أحيحة فقال لهم والله ما دعاكم لخير . فذهب الأشراف اليه واستصحب أحيحة معه خباء وخمراً وقينة له تسمى (مليكة) فضرب الخباء وترك فيه خمره ومليكة . ثم استأذن على تبع فاذن له . واجلسه معه على زربيّته (بساط منقوش بالالوان جمعه زرابي) وجعل يحادثه ويسأله عن امواله بالمدينة فأخذ يخبره عنها . وتبع يقول له : « كل ذلك على هذه الزربية » ففهم أحيحة من قوله هذا انه يريد قتله . فخرج من عنده الى خبائه وقينته . فنظم لها قصيدة وداعية وجعل يشرب وهي تغنيه بها . ومن هذه القصيدة قوله :

يشتـاق قلبي الى مليكة لو أمست قريباً ممن يطالبهـا
ما أحسن الجيد من مليكة واللبّـات إذ زانهـا ترائبهـا
يا ليتني ليلة اذا هجع النـا س ونام الكلاب ـ صاحبها
في ليلة لا يرى بها أحـد يسعى علينا ـ الاكواكبها

وهذه الابيات مما كانت تغني به القينـات في عهد الخلفـاء . ولما نام حرس الملك أزمع أحيحة الهرب . وعلّم قينته مليكة ما تقول لتبع اذا سألها عنه ، ثم انطلق الى حصنه واستعد للدفاع وبعد ان قتل تبع الاشراف الذين دعـاهم اليه ارسل حراسه في طلب أحيحة ، فلم يأتوا به وانما اتوا بمليكة . فاخبرته ان سيدها التجأ الى حصنه ، وانه يقول له : « اغدر بقينة او دع » وقد ذهبت كلمته هذه مثلاً في كثير من كلماته

الاخرى . فخاف الملك السبّة والعار بقتلها فتركها وأرسل كتيبة من خيله إلى أحيحة فحاصروه ثلاثة أيام كان يرميهم فيها بالنبل والحجارة نهاراً وبالتمر والزاد ليلا ، فرجعوا إلى الملك وقالوا نحن مافهمنا معنى هذه الحرب التي يقاتلنا فيها هذا الرجل نهاراً . ويضيفنا ليلا فأمرهم بالكف عنه واكتفى بتحريق نخله ، وبقي الملك يقاتل عرب المدينة ويهودها أياماً ثم رحل عنها أخيراً عملا بنصيحة حبرين من اليهود أخبراه انها ستكون مهاجَر نبيّ يظهر في آخر الزمان . وذهب الى مكة فكسا الكعبة البرود اليمانية عملا باشارة الحبرين أيضاً اللذين أخذهما معه إلى اليمن وتهوّد هو وقومه ويقال إن هذا هو أصل دخول اليهودية في اليمن .

هذه خلاصة مارواه مؤرخو العرب عن تبع وحربه في الحجاز وكيف تخلص أحيحة منه بدهائه وشجاعته . ومن ثم كان قومه يشهدون له بانه ادهاهم رجلا . وكانوا يزعمون أن له تابعاً من الجن يعلمه الخبر ، وذلك لما رأوا من ذكائه وكثرة صوابه . ولعمري ليس تابعه سوى عقله ودهائه . والعرب ان كانوا يقولون ان مع من نبغ من رجالهم جنياً فان الافرنج يسمون الفراسة والذكاء والنابغة المتفوق من رجالهم جيني (Génie) ألا ترون ان بين الكلمتين او بين التسميتين نسباً واضحاً واتصالاً ظاهراً ؟ والعرب ايضاً يسمون الذكي الذي يكثر صوابه ويصدق حدسه (ألمعياً) وقد قال شاعرهم : الالمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

ويسمون الذي يفوق غيره ولا يملوه شيء عبقرياً . فيحسن بنا اذن ان نعرب كلمة (جيني) الفرنسوية بكلمة (الالمعي) لقربها منها او (العبقري) . هذا اذا لم تعجبنا كلمة (نابغة) .

مامر من حرب أحيحة مع تبع هو من قبيل الحروب الخارجية اما حروبه الداخلية فهي حربه مع بني عمه الخزرج وكيف قهرته السيدة سلمى الخزرجية جدته (صلعم) :

قتَلَ رجلٌ من الأوس قوم أحيحة رجلا خزرجياً من بني النجار قوم سلمى زوجته فنشبت الحرب من جراء ذلك بين الحيين . وكان أحيحة قائد قومه فعزم على تبييت الخزرج ، وأخذهم على غرة فشمرت بذلك زوجته سلمى بنت عمرو الخزرجية النجارية وكانت امرأة شريفة لا تنكح الرجال إلا وأمرها بيدها : إذا كرهت من رجل شيئاً تركته . فدبرت حيلة أنقذت بها قومها من كيد أحيحة : وذلك أنها في تلك الليلة التي أزمع

فيها زوجها تبييت الخزرج قومها ربطت ابنها عمراً من ذبذبه بخيط وكان فطيماً حتى إذا اوجعته تركته فبات يبكي ، وبات أبوه مؤرقاً يتقلب في فراشه ويقول : « ويحك يا سلمى ما لعمرو لا ينام » فتقول « ما أدري والله ! » . حتى إذا ذهب الليل حلت الخيط عنه ولكنه لم يكد ينام حتى صرخت أمه سلمى : « وارأساه » فقال أحيحة : « شراً ما لقيت في هذه الليلة» وقام إليها فجعل يعصب رأسها ويدلك براحته ظهرها ويقول : ما بك من بأس . حتى، إذا لم يبق من الليل إلا أقله . قالت قم فنم ،فاني أجدني مستريحة. وإنما فعلت ذلك ليثقل رأسه ، ويشتد نومه . فلما استغرق في النوم أخذت حبلاً متيناً وأوثقته برأس الحصن ثم تدلت منه إلى قومها . وأنذرتهم بالذى أجمع عليه أحيحة وقومه من تبييتهم . فحذروا وتأهبوا . ولما جاءهم (أحيحة) لم يقدر أن ينال منهم نيلا .فعاد خائباً وجعل يقول : (آه لك يا سلمى خدعتني حتى بلغت ما أردت) وسماها قومها من ذلك اليوم المتدلية . ولأحيحة في هذه الحادثة اشعار كثيرة كان يعتب فيها على سلمى وسيأتي بعضها . ثم إن سلمى لم تعد إلى أحيحة كما هو شرطها في أن تختار نفسها متى شاءت وبعد ذلك تزوجت بسيد قريش وإمـام البطحاء (هاشم بن عبد مناف) فولدت له عبد المطلب جد نبينا (صلعم) ومن هنا جاء ما ترونه في السير من أن أبا النبي عبد الله مات في المدينة عند أخواله بني النجار وأن السيدة آمنة كانت تذهب به (صلعم) وهو صغير إلى المدينة فتزيره أخواله بني النجار- يعنون بذلك أخوال جده عبد المطلب من أمه (سلمى) هذه .وإذا كانت سلمى جدة عبد المطلب زوجة لأحيحة فيكون قد عاش أحيحة قبل البعثة بنحو سبعين سنة على أقل تقدير .

ومما له علاقة بأخبار (أحيحة) الحربية تنافسه في اقتناء الدروع واستكثاره من العتاد والسلاح : وقد ذكروا أنه لما قتل خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة سيد بني عبس عزم ابنه قيس على أخذ الثار وجاءَ المدينة لشراء السلاح والعدة . فأخبر أن عند أحيحة من ذلك الشيء الكثير . وأن لديه درعاً لم يكن في يثرب درع تضاهيها . فطلبها قيس منه فأبى وقال : كيف أعطيكها وخالد بن جعفر الذي يقول :

إذا ما أردت العز في آل يثرب ... فناد بصوت يا أحيحة فاسمع

رأيت أباعمرو (أحيحة)جاره ... يبيت قرير العين غير مروّع

ومن يأته من خائف ينس خوفه ومن يأته من جائع البطن يشبع
فضـائل كانت للجلاح قديمـة واكرم بفخرمن خصالك الاربع

احيحة رجل شعر وادب : مر في الكلام على انه رجل حرب ـ شيء يدل على منزلته من الشعر والادب : من ذلك قطعته الادبية التي غنته بها قينته مليكة وأولها :

مـاالحسن الجيد من مليكة وال لبات اذ زانها ترائبهـا

وان له كلمات سارت في العرب مسير الأمثال من ذلك قوله لملك حمير بلسان مليكة (أغدر بقينة أو دع) . ومن كان مثل أحيحة في أعماله الحربية كما سمعت وأعمـاله العمرانية والزراعية والاقتصادية كما ستسمع ـ لا يتيسر له أن ينظم الشعر الكثير . على انه ربما كان له شعر كثير لم ينقل الينا كغيره من فحول شعراء الجاهلية

فمن شعره قصيدته المذهبة المعدودة بين المذهبات في كتاب (جمهرة اشعـار العرب لابي زيد القرشي) وقد عد ابو زيد أحيحة في أصحـاب المذهبات وقال انهم كلهم من اهل المدينة المنورة . ومطلعها :

صحوت عن الصبا والدهر غول ونفس المرء آونـة قتـول
ولو أني أشاء نعمت حـالاً وباكرني صبوح أو نشيل
ولاعبني على الانمـاط لعس على افواههن الزنجبيـل

ومنهـا

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل
وما تدري وإن ألقحت شولاً أتلقح بعد ذلك أم تحيـل
وما تدري وان أنتجت سقباً لغيرك أم يكون لك الفصيل
وما تدري وإن أجمعت أمراً بأي الارض يدركك المقيل

واشار في هذه القصيدة إلى كيد زوجته سلمى له واحتيالها عليه فقال :

اذا مابت أعصبهـا فباتت عليّ مكانهـا الحمى النسول
لعلّ عصابها يبغيك حرباً ويأتيهـم بعورتك الدليـل

وأشار إلى حصنه فقال :

وقد اعددت للحدثان حصناً لو ان المرء تنفعه العقول
طويل الرأس أبيض مشمخراً يلوح كأنه سيف صقيـل

أحيحة رجل عمران : بقي علينا ان نتكلم على أحيحة بصفة أنه رجل عمران. ونعني بالعمران هنا القدر الذي يطيقه محيط يثرب في ذلك العهد . فلا يعترضن علينا معترض بانه لايسمى العمران عمراناً الا اذا كان مثل عمران لندره وباريز اليوم !! على أنه لو كان أمثال أحيحة في ذلك العهد كثيرين يسعون سعيه في الزراعة وجمع المال وإنشاء القصور لكان للمدينة شأن آخر غير شأنها المعروف .

(الأُطم) في لغة العرب بمعنى الحصن والقصر العظيم ويجمع على آطام وكان أهل يثرب قبيل الاسلام يبنون آطامهم بالجنادل والحجارة ويتخذونها أحياناً معاقل وقلاع دفاع . كما سمعت في خبر أحيحة مع تبع . وكانت هـــذه الآطام عز العرب ومنعتهم وحصونهم التي يتحرزون بها من عدوهم . ومن أشهر آطام العرب وأعظمها شأناً اطمان كانا لأحيحة أحدهما بناه في المدينة وسماه (المستظل) وهو الذي تحصن فيه حين قاتل ملك اليمن والآخر سماه (الضحيان) وقد بناه في مزرعة له يقال لها (الغابة) وهي على بعد نحو فرسخ من المدينة . وكأنه سماه (الضحيان) لانه ضاح بارز للشمس بخلاف (المستظل) فقد كان مبنياً في ظل المدينة وبين بيوتها .

وبنى (أحيحة) أطمه (الضحيان) بحجارة سوداء ثم بنى من فوقه نبرة بيضاء مثل الفضة . والنبرة كل شيء مرتفع . ثم جعل على هذه النبرة نبرة أخرى مثلها بحيث يراها الراكب من مسيرة يوم أو نحوه قالوا : ولما شيد (أحيحة) أطمه (الضحيان) على هذه الصورة أشرف من فوقه ومعه غلام له وقال (لقد بنيت حصناً حصيناً مابنى مثله رجل من العرب أمنع ولا أكرم ولقد عرفت موضع حجر منه لونزع لوقع الحصن جميعاً) فقال الغلام المسكين انا اعرفه يامولاي واشار اليه فدفعه (أحيحة) من رأس الأطم فوقع ميتاً . وانما قتله إرادة أن لايعرف سرّ ذلك الحجر غيره . وهذا كما حكي عـــن سنمار المعمار الذي شيد الخورنق للنعمان وجعـــل فيه مثل ذلك الحجر الذي وضع في حصن

(أحيحة) فان النعمان رماه من فوق ذلك القصر فمات لئلا ينكشف سر الحجر . وقد ضرب بسنمار المثل فيقال (جزاه جزاء سنمار) .

وكان من عادة أحيحة أن يجلس في ظل أطمه الضحيان . وكان في أوقات الخوف يرسل حواليه كلابا له تنبح دونه على من يأتيه ممن لا يعرف . حذراً من عدو يصيب منه غرة . وقد نجته هذه الكلاب مرة من خصمه (عاصم) الخزرجي فانه تسلل إليه ليلا يريد الفتك به . وجعل يرمي للكلاب تمراً فوقفت ساكتة . فأحس (أحيحة) بالشر وأسرع إلى حصنه تحت وابل من السهام وهكذا نجا من الموت الزؤام .

هذه عناية (أحيحة) بتشييد الأبنية أما عنايته بانشاء المزارع والبساتين فعظيمة أيضاً : قالوا كانت له مزرعة تسمى (الزوراء) وأخرى اسمها (الغابة) . وكان له في (الجرف) وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام أصوار من نخل قلّ يوم يمر به الا يطلع عليه . والأصوار جمع صور وهو النخل الصغير ومعنى انه صغير انجنسه صغير أوأنه فسيل يزرع ثم ينقل من منبته الموقت إلى مغرسه الدائم . ومن شعر (أحيحة) في مزرعته (الزوراء) :

إني أقيم على الزوراء أعمرها ... إن الكريم على الاخوان ذو المال
استغن أومت ولا يغررك ذو نشب ... من ابن عم ولا عم ولا خال

ولما زار الوليد بن عبد الملك المدينة سأل عن الزوراء هذه وأنشد الأبيات . فدلوه عليها فقال (ان أبا عمرو يراه غنياً بها) فعجب الناس من معرفة الوليد بأخبار العرب حتى علم أن (أحيحة) يكنى (أبا عمرو) .

وكان لأحيحة في مزارعه تسعة وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها أي ينقل الماء على ظهورها إلى مزارعه وبساتينه . والبعير الذي ينقل الماء يسمى ناضحاً ويسمى أيضاً (سانية) ومنه المثل (سير السواني سفر لا ينقطع) ولم يقتصر أحيحة في الزراعة على غرس النخيل وإنشاء البساتين بل كانت له حقول يزرع فيها الحنطة بكثرة بدليل قوله:

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً ... ورد المدينة عن زراعة فوم

ومراده بالفوم الحنطة وهي لغة للعرب قديمة أو هي لغة بني هاشم وحكوا قولهم (فوّموا لنا) أي اختبزوا لنا خبز حنطة . ولا يمكن أن يريد (أحيحة) بالفوم الثوم

الذي هو معناه أيضـــاً لأن الثوم لا تزرع منه مقادير كبيرة تغني صاحبها لعـــدم حاجة الناس إليها بخلاف الحنطة فان الناس يحتاجون إليها فيكثر أرباب الزراعة من زراعتها . وقوله تعالى عن بني اسرائيل (واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) اختلفوا في المراد بالفوم هل هو الثوم أو الحنطة ؟فذهب ابن عباس إلى أنه الحنطة وان العرب تعرفه بهذا المعنى بدليل قول أحيحة « قد كنت أغنى الناس » الخ ولا يعترض على هذا بأنه قرىء في الآية (وثومها) بالثاء مكان (فومها) بالفاء لأنا نقول ان الثاء فيها مقلوبة عن الفاء كما قلبت في (مغافير) و (جدف) فيقال فيها (مغاثير) و (جدث). ثم يقال من جهة ثانية إن الفوم قرن في الذكر بالعدس فيكون ضربا من القطـــاني يعني الحبوب ولم يقرن بالبصل حتى يكون أخاه الثوم .

أحيحة رجل مال : قالوا : كان (أحيحة) رجلاصنيعاً للمال . شحيحاًعليه . ومعنى قولهم (صنيعاً) انه حاذق بجمعه حريص على تنميته وتكثيره . اذ يقال فلان صنيع اليدين وصناع اليدين يعنون انه حاذق . أما قولهم (انه كان شحيحاً) فلم يريدوا انه بخيل لايجود بالمال . كيف وقد تقدم في خبره مع (تبع) انه كان يحارب عسكره في النهار ويضيفهم بالتمر في الليل ومر أيضاً قول خالدبن جعفر فيه (ومن يأتـــه من جائع البطن يشبع) فلا جرم أن يكون المراد بكونه شحيحاً على المال انه حريص عليه فلا يدع شيئاً منه يذهب سدى من دون أن يستثمره وينتفع به . وهذا هو الاقتصاد او التدبير المنزلي بعينه .

ومما قالوه عن « أحيحة »أنه كان يتبع بيع الربا في المدينة حتى كاد يحيط باموال أهلهـــا . أي كاد يستولي على أموالهم بتواتر الفائدة وفائدة الفائدة . ومن هـــذا تعرفون مقدرةالرجل ومهارتهفي كسب المالوالاحتيال علىجمعه ، ومثلهفي ذلك كثيرون من سادات العرب واشرافهم في المدينة ومكة قبيل البعثة فقد أكثروا من المراباة حتى كاد الفقراء يهلكون . ولميكنأحد يقرض الفقراء قرضاً حسناً لوجه الله . بل كانوا إذا طلبوا قرضاً من غنيطلب منهم الفائدة بطريقة الربا و كانوا اذا حل الاجل وعجز المدين

الاداء يقول المرابون لهم نؤخر لديكم المال وزيدونا في فائدته فما كانت تمضي سنون حتى يعجز هؤلاء المساكين عن الاداء فيضع المرابون الاغنياء يدهم على عقارهم واموالهم ويستصفونها لانفسهم : حالة مزعجة مخربة للعمران .مقوضة لراحة بني الانسان . جاء الاسلام فانكرها على ذويها . ونعى عليهم فعلهم وقسوتهم . وحضهم على الرفق بالفقراء ورحمتهم. وان يقرضوهم القرض الحسن .وبذلك يعتدل الميزان وتهدأ الاحقاد والاضغان

فالربا في الجاهلية كان مداره انتظار الغني طروء حاجة على الفقير وترقب ضائقته المالية . حتى اذا سنحت الفرصة له استغل هذه الحاجة والفقر من دون رحمة ولا شفقة . ومن العجائب أن يكون الفقر مصدراً للغنى : فقير يحتاج فيقصد غنياً ليشكو له أو ليستقرض منه فينتهز الغني الفرصة فيدينه بالربا ثم يحلبه كل سنة الى أن يترب ولا يبقى عنده شيء . فما أعدل الاسلام وما أرحمه مذ حرم الربا . وانقذ هؤلاء المساكين من براثن اولئك البغاة الظالمين .

هنا ايها السادة نختم القول عن حياة (أحيحة بن الجلاح) الذي تبين لكم بحق انه رجل حرب وشمر ومال وعمران في آن واحد . ومهما سمحت لكم أيها السادة ان تنسوا شيئاً من محاضرتي لا أسمح لكم ان تنسوا (سلمى الخزرجية) التي تدلت من شرفات الحصن الشامخ . وخاطرت بنفسها زاهدة في زوجها وابنها والثروة التي كانت تعيش في ظلها . كل ذلك من أجل سلامة قومها . وتفضيل مصلحتهم على مصلحتها . فعليكم أن تقتدوا بها في حب وطنكم . لا سيا انها ليست غريبة عنكم . بل هي جدة نبيكم .

(المغربي)

اصل هز الايدي عند السلام

كان للرومانيين آلهة اسمها (فيدز) ومعناها الامانة .وكان كساؤها وشاحاً ابيض رمز الحرية وسلامة الطوية وشعارها يدين يمنيين متماسكتين أو فتاتين متصافحتين .

فاتخذ اليونان والرومان من ذلك السلام بالمصافحة (أي بهز اليدين) قاصدين بذلك اظهار الاخلاص وحفظ العهود . ثم عمت هذه العادة .

حقائق تاريخية

عن

دمشق وحضارتها

« تتمة المحاضرة التي نشرت في الجزءين الاخيرين من السنة الاولى »
« في صفحة ٣٤١ و ٣٧٠ »

٥ - حضارتها وعمرانها

لقد اسس حضارة دمشق اللوديون أو الروتيون والاراميون والفينيقيون والحثيون والعبرانيون والآشوريون والبابليون والماديون (الفـــرس) والمكدونيون (اليونان) والرومانيون والعرب ومن جاء بعدهم من الأمم الاخرى .

ومما يدلنا على قدم الممالك الاولى ان اسم دمشق والشام ارامي والشاغور (الصغير) والغوطة وقطنا حتي ودمر بمعنى تامارا اي الاله القادر فينيقي . وهكذا بقية الممالك التي تعاقبت عليها . على أن الدول اليونانية التي بقيت ٢٤٨ سنــــة والرومانية التي تولت شؤونها ٧٠٠ سنة والعربية التي اتخذت هذه المدينة حاضرتها احدى وتسعين سنة[١] كانت حضارتهم اساساً لما بعدها لانهم استبحروا في العمران .

ومما لا ريب فيه ان حضارة دمشق القديمة كانت وثنية فشيدت فيهـــا الابنية الضخمة منها « هيكل رامون[٢] » ونحتت التماثيل ونقشت الكتابات مما ذكره كثير من مؤرخي العرب وفي مقدمتهم ابن عساكر في تاريخه المطول فانه ذكر وجود تماثيل وكتابات يونانية وكذلك ياقوت في معجمه والارمنازي في تاريخه اذ تعززت حضارتها في عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني . وفيها محل كان يعرف « بصفة بقراط » حيث كان يجلس هذا الفيلسوف فيه كما قيل .

---

(١) من سنة ٤١ — ١٣٢ هـ الموافقة لسنة ٦٦١ — ٧٤٩ م (٢) كان محل الجامع الاموي الكبير .

ولكن الرومانيين تساهلوا مع سكان سوريا ولا سيا الفينيقيين والآراميين بعباداتهم فكرموا هياكلهم اخصها هياكل دمشق وبعلبك فامتزجت العبادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزاجاً تدل عليه الأساطير القديمة وتحليل اسماء المدن والقرى الباقية الى عهدنا مما فصلته في كتابي « تاريخ سورية المجوفة [1] » فكان الفينيقيون يعبدون عَلْيُون وهو زُحل عند اليونان فكرمه هؤلاء كا كرموا مينرڤه الهة الحكمة عند اليونان وهي سيميه عند الفينيقيين . وفي اسمي قريتي (علين) قرب زحلة التي منها اسمها و (بسيمة) في وادي الزبداني وغيرهما دلالة صريحة على هذا الامتزاج .

ولما تنصر اليونان والرومان نقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هياكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية فعضدتها القبائل المتنصرة ومعظمها كان من غسان وقضاعة واياد من السلائل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المريمية الكبرى وهي من بناء اركاديوس قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبير ، وخربت مراراً ورممت إلى أن احترقت في حادثة سنة ١٨٦٠م فذهب ما بقي من رونقها القديم طعمة للنار فرممت على طراز حديث ولا تزال المحلة القريبة منها تسمى (القيمرية) وهي على ما يلوح لي بقية كلمتي (ايكوز – ماريا) اليونانيتين اي بيت مريم وكذلك محلة (الآسية) بقية كلمة (كليسية) اليونانية بمعنى الكنيسة . ومنها كنيسة القديس يوحنا (في الجامع الأموي) أيضاً وقربها محلة (الكلاسة) ولعلها تحريف اكليسية اليونانية بمعنى الكنيسة أيضاً إلى غيرها من الديارات (الاديار) والكنائس التي في دمشق وخارجها مما وصفه المؤرخون مثل دير خالد أو دير صليبا مقابل باب الفراديس ودير مران ودير هند ودير إيا (ولعلها هي اليوم داريا) . ودير قانون في وادي بردى الغربي

وفي دمشق من هذه الآثار الباقية مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام . وكذلك محل (حنانيا) الرسول في

(١) هو تاريخ مطول في نحو ٨٠٠ صفحة يشتمل على تاريخ وادي العاصي وبردى والليطاني وما اليها .

الزقاق إلى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة بيد الآباء الفرنسيسكان وقربها جامع خرب .

ولكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠ م فخربوا ابنيتها وغيروا اسماء مدنها[1] بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يمحى .

ولما فتحها العرب سنة ١٤ هـ « ٦٣٤ م » اشتهرت حضارتها في عهدهم ولا سيما في زمن الدولة الاموية التي اتخذت دمشق حاضرة لها فصكت فيها أول النقود العربية بزمن عبد الملك بن مروان . وانشأ معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في الفهرست : ان اول من حفل بجمع الكتب من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي فانشأ « مكتبة » في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية فانشأ « دار الترجمة » وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك . ولقد ظهر في قبة الجامع الاموي كتب وأوراق قديمة على رقوق بالعربية والسريانية والعبرانية والقبطية واليونانية نقلت إلى المانية وبعضها في متحفنا السوري في دمشق[2] . ثم بنى الوليد الجامع الاموي الشهير بفخامته ورونقه وانفق عليه خراج مملكته تسع سنوات مما تعادل قيمته الف الف ريال من نقودنا اليوم . وذكر ياقوت الحموي وغيره : انه تم عمله في تسع سنوات كان يشتغل فيها عشرة آلاف رجل كل يوم يقطعون الرخام . ولما شكا الناس من انفاقه هذا من بيوت مال المسلمين اجابهم : تقولون وتقولون وفي

(١) لقد مر بنا في القسم المنشور في السنة الماضية من تسميات الفرس «جلق» و«جوبر» صفحة ٣٤٦ و ٣٤٩ وبقيت اسماء كثيرة منها اسم « الزبداني » ومن رأي صديقي الأستاذ انيس افندي سلوم انه فارسي مركب من كلمتي « سيب » بمعنى رائحة التفاح و « ستان » محل أي مغرس التفاح فحرف بالزبداني . ويعضد ذلك قول العرب : من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح . وقيل ان الاسم عبراني بمعنى الهبة مثل كفر زبد وزبدل ويزبدين في انحاء سورية ولبنان .

(٢) راجع صفحة ٣٩٥ من سنة المجلد الأول .

بيت مالكم عطاء ثماني عشرة سنة اذا لم تدخل لكم فيها حبة قمح . فسكت الناس . وقال الجاحظ في كتاب البلدان : وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر . فاذهب حريق سنة ٤٦١ هـ رونقه . وقد توالت عليه الحرائق فشوهت محاسنه وفي حريق ماحوله في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٢ م ظهر كثير من الاعمدة الكبيرة التي كانت حول الهيكل وجدران رومانية كثيرة .

ولقد شيدالوليد أبنية اخرى فاستقدم الصناع الى دمشق من بزنطية (القسطنطينية) ومن العجم وغيرهما فاشتهرت فيها الصناعات النفيسة منذ ذلك العهد ولا سيا الترصيع بالفسيفساء . ومن الابنية التي شيدوها بيت المال والدار الخضراء الى جنوبي الجامع وبلاط معاوية ودار سليمان بن عبد الملك ودار عمر بن عبد العزيز ودار هشام ودار ابنه مسيلمة وهذه كلها حول الجامع الكبير ايضاً . وعقد الوليد ميداناً لسباق الخيل كما هو جار اليوم عند الافرنج ولا يزال ذلك المضمار الى يومنا يعرف (بالميدان) وهو من احياء المدينة المشهورة في غربها الجنوبي .

وحوّلت الدواوين من اليونانية الى العربية فرتبت على نمط جديد ووضع ديوان الختم وحزم الكتب والبريد وغيرها .

وكان اليمنيون الذين احتلوا دمشق منذ القدم قد نقلوا اليها صناعة الشفار والنصال اي السيوف وهم مشهورون بهاقاتقنها الدمشقيون على يدهم وذاعوا بهاشهرة فكانوايستخرجون حديدهم من ضواحي المدينة ولا سيا من داريا حيث آثار المعامل . ولاتزال محلة المسبك في احياء النصارى من شرقي المدينة تدل على سبكه وكذلك اسم بني المسابكي من اسرها المسيحية . واشتهر فولاذ دمشق بغرابة سقايته وصلابته ورونقه حتى يقال ان بني (بولاد) الاسره المسيحية اشتهرت بصنعه فنسبت اليه ، ولهم حارة باسمهم ولعلها كانت معملا لصنعه .

ولقد كثرت معامل السيوف في دمشق ونسب الى هذه الصناعة بنو السيوفي من مسلمين ومسيحيين ونقل الصليبيون الى بلادهم سر هذه الصناعة ولا سيا عمل الجوهر .

وبقي الدمشقيون متفوقين بها على الجميع الى ان سباهم تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر فامات هذه الصناعة هنا واحياها في العجم .

ومما كان مشهوراً في دمشق القاشاني نسبة الى مدينة قاشان وهي قرب اصفهان العجم كان أهلها قد ورثوا عن البابليين هذه الصناعة فاشتهروا بها ونسبت الى مدينتهم ولقد دلت الآثار القديمة المحفورة في فلسطين ان الكنعانيين عرفوها ومن هذه الصناعة بقايا في بعض الجوامع والحمامات وفي متحفنا . وكذلك الفسيفساء وهي نقوش من الزجاج الملوّن المرصوف على الجدران والسقوف وفي القبة الظاهرية ابدع مثال لها بالوان جميلة واصباغ مزخرفة ورصف يأخذ بمجامع الابصار .

وكذلك الميناء أي جوهر الزجاج واتجر بها الدمشقيون من العجم ولها بقايا تدل على اتقانها هنا . وتزويق الجدران والسقوف بالنقش والاصباغ وفي دار اسعد باشا العظم امثلة رائعة منه . وكذلك الزجاج الذي وصفه كثير من المؤرخين والرحالة . والخزف المنقوش . وترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة وقد اشتهرت في زمن الملك الظاهر البندقداري في القرن السابع للهجرة والترصيع بالصدف والقطع الملونة على الخشب . وفي معمل النعسان في الباب الشرقي امثلة رائعة من هذه الصناعة . وعرف الدمشقيون نسج الديباج وغيره من صناعة الورق والصباغ وغيرهما مماله بقية قليلة الآن لها بعض مزايا الاتقان . ولعلي افرد محاضرة خاصة لصناعات دمشق ومزاياها المشهورة باكثر تفصيل وأدق استقراء .

اما تجارة دمشق فانها بعد سقوط تدمر محط رحال القوافل التجارية بين الشرق والغرب تحولت الى هذه الحاضرة ولا سيما تجارة الهند والعجم والعراق وخافت تدمر (ملكة البر) واشتهرت بنتاج أرضها الخصيبة فتوطدت فيها دعائم العمران واهمها الزراعة والصناعة والتجارة . فقصدها تجار اوربة وغزرت ثروتها . فضلاً عن انها كانت مجتمعاً للحجاج الذين يذهبون الى القدس الشريف والى مكة المكرمة والمدينة المنورة في طريقها البرية . وبقيت مزهرة في تجارتها إلى ان فتحت ترعه السويس في اواسط القرن التاسع عشر الماضي فانحطت تجارتها وقل عدد الحجاج الذين يقصدونها لسهولة الطرق البحرية وتحويل القوافل البرية الى بواخر بحرية .

وكانت للامويين مجالس ادب مع شعرائهم وعلمائهم ومحاضرات ومساجلات ومكاتب ومتاحف لطرائفهم واشتهر كثير من النساء بادبهن الرائع في ذلك العصر وبينهن الخطيبات والشواعر اللواتي جالسن العلماء مثل سكينة ابنة الحسين التي انتقدت الفرزدق وجريراً واثنت على كثير وجميل . وصديقتها ام البنين زوجة الوليد التي ساعدته بتعزيز العدل والشفقة على الرعية وشاركته في السياسة والآداب بحصافة عقلها . فكانت له الآراء السديدة . ورابعة العدوية المشهورة بزهدها وبرها وادبها الى غيرهن ممن كانت بيوتهن مجالس ادب وسوق عكاظ للغة والشعر .

هذه لمعة من الحضارة الاموية في دمشق تشعب منها كلام الى ما بعدها لعلاقته بها . على انه لما اضطرب حبل الامويين بظهور السفاح العربي حمل عليهم وخرب دورهم وشتت شملهم فمحا كثيراً من آيات حضارتهم التي انتقلت الى الاندلس واوربة وازهرت طويلاً فيها .

ولقد حل في دمشق المأمون بن هرون الرشيد العباسي مرتين . والخليفة المتوكل الذي نوى نقل دواوينه اليها ثم نقض ما ابرمه من هذا الرأي لاسباب لا محل لتفصيلها .

ودخلها سيف الدولة بن حمدان يتولى شؤونها سنة ٣٣٤ هـ فحدثت له في الغوطة ما اوغر عليه صدر الدمشقيين فرفضوه واليك القصة : لما ملك سيف الدولة دمشق خرج يتنزه في غوطتها مع الشريف العقيقي (صاحب الدار التي هي اليوم المكتبة الظاهرية) فقال له الملك : ماتصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد . فقال العقيقي : هي لاقوام كثيري العدد . فقال سيف الدولة : لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرأوا منها . فاعلم العقيقي الدمشقيين بالخبر . فتغيروا على سيف الدولة . وكاتبوا كافوراً يستقدمونه اليهم فجاء واخرج سيف الدولة منها .

وكانت بغداد في هذه الفترات تنازع دمشق الحضارة وتنافسها في التجارة وتقف في طريق عمرانها اقتصاصاً من الامويين الذين شيدوا حضارتها ورفعوا اعلام مجدها فتقهقرت وانحطت مدة طويلة .

فلما صارت شؤونها بيد الدولة الايوبية ورأسها السلطان صلاح الدين الشهير ارتفع منار حضارتها وتبسط عمرانها واتسع نطاق مجدها فاسست فيها المدارس الكبيرة

والمستشفيات والمياتم واختلف إليها العلماء والأطباء والصيادلة. حتى كان عدد مدارس القرآن الشريف سبعاً والحديث ثماني عشرة والشافعية سبعاً وخمسين والحنفية احدى وخمسين والحنابلة عشراً والمالكية أربعاً والطبية ثلاثاً . وكان فيها البيمارستان النوري وصيدليته . وبين تلك المدارس تسع أسستها فاضلات النساء من المالكات والأميرات . ذلك فوق ما كان فيها من الربط والخوانق والزوايا والمستشفيات . مما له بقايا دارسة واطلال عافية .

وشيدت فيها الدور الفخمة والقصور الشامخة . وأنشئت المكاتب الغاصة بالكتب المخطوطة النادرة ولا سيما في المدارس المذكورة ونبغ منها العلماء والشعراء والأدباء والمؤلفون على اختلاف أزمانهم ومراتبهم .

واشتهر فيها ملوك وأمراء رفعوا اعلام حضارتها بأبنية منيعة مثل الملك الظاهر والعادل وتنكز والاشرف ومصطفى لالا باشا ومراد باشا وسنان باشا . فكانت دولة المماليك المصريين التي أولها الملك الظاهر بيبرس البندقداري والجراكسة الذين أولهم الظاهر برقوق والعثمانيين الذين أولهم السلطان سليم وأمراء القيمرية كلهم يحبون العمران .

ومن متأخري هؤلاء الأمراء الحكام آل العظم الكرام فانهم ولعوا بالعمارة فشيدوا القصور الباقية وعززوا المدارس وجمعوا المكاتب فكان منهم بضعة عشر والياً في أنحاء سورية ولا تزال اثارهم تحدث بمجدهم الباقي مثل دار أسعد باشا وبعض أبنيتهم وكتب المكتبة الظاهرية المطرزة بأسمائهم وأوقافهم .

واشتهر بين الدمشقيين من أرباب الصناعات الأخرى والحذق من ذاع اسمهم في التواريخ وحفظت آثار أعمالهم شاهدة على براعتهم ولا سيما في صناعة الساعات التي تفوقوا فيها ومن قدمائهم الذين ذكرهم ابن أبي اصيبعة في كتابه (الحكماء) مهذب الدين أحمد بن الحاجب الدمشقي فانه كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع . وكذلك فخر الدين الساعاتي الذي عمل الساعات عند باب الجامع الأموي في دمشق . وممن ذكرهم غير ابن أبي اصيبعة علي بن عريف النحاسين الدمشقي النحاس الذي ركب مواد انفجارية نسف بها الأبراج الصليبية في حصار عكاء .

ولقد انتابت دمشق الحرائق والزلازل والفتن والفتوق وغيرها من النكبات فمحت

كثيراً من آثارها . ودفن معظم عمرانها القديم في الشوارع والبيوت فاذا أريد اظهاره احتيج إلى نسف الأماكن وتقويض الأبنية لاستثارة دفائن مجدها القديم . ويكفيها انها كانت آية البناء الشرقي قائمة على أجمل طراز هندسي أشبه بمدينة تدمر الشهيرة أيام عمرانها فكانت دمشق بيضية الشكل مستطيلة يحدق بها سور عظيم منيع ويخرقها من الشرق إلى الغرب الزقاق المستقيم وهو السوق القائمة من باب الجابية إلى الباب الشرقي وطولها نحو ميل وكان على جانبيها رواقان قائمان على الأعمدة الضخمة وبين الواحد والآخر نحو اثنتي عشرة ذراعاً ففي الرواقين تسير المارة وفي الشارع العريض بين الرواقين تسير العجلات والحيوانات ولا تزال بعض هذه الأعمدة بين البيوت ومنها اثنان في باب جيرون (النوفرة) إلى يومنا . ولما حفر أساس الثكنة في حي النصارى الممتدة إلى باب توما سنة ١٨٦٢ ظهرت آثار أعمدتها . وكذلك شارع طويل تحت الأرض من مأذنة الشحم إلى الباب الشرقي بأعمدته وهندسته . وكان عند مأذنة الشحم ملعب روماني مدرج (امفتياتر) . وكان الجامع الأموي في قلب المدينة وحوله سور له أربعة أبواب معروفة بقي منها باب البريد في غربيه وباب جيرون (النوفرة) في شرقيه . وهناك أعمدة ضخمة بديعة . وكان للمدينة ثمانية أبواب في كل جهة بابان حتى قيل فيها :

دمشق في أوصافها جنة خلد زاهيه
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانيه

وكانت سوق باب البريد أجمل أسواق المدينة عمر في وسطها مراد باشا قبة جميلة قائمة على أعمدة عظيمة عليها كتابات وأشعار بالعربية والكوفية :

ووصف مؤلف محاسن الشام أبواب المدينة بقوله : وغالب هذه الأبواب القديمة بنى عليها نور الدين الشهيد منابر على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وأقفلت الأبواب ، يستغني أهل كل باب من هذه الأبواب بما عندهم .

وأمام السور في شرقي المدينة بين الباب الشرقي ومقام الشيخ أرسلان بيت (نعمان السرياني) وهو بجذَمة اليوم (مستشفى للجذام) وفي صدره أربعة أبواب ضخمة منحوتة

الحجارة وبينها قنطرة وفيه مجذومو المسلمين . والمروي في التوراة ان نعمان هذا كان ابرص أو مجذوماً فقصد ايليا النبي مستشفياً فقال له اغتسل بالاردن . فقال له : عندي ابانة (بردى) وفرفراي (الاعوج) ومعناه السريع وعاد إلى بلده . وفي داخل الباب الشرقي مجذمة (القماطلة) المسيحيين أيضاً وهم المجذومون الذين تسميهم العامة بهذا الاسم (مقعطل) أو (مقلمط) وهي الحظيرة الآن .

وفي أحياء المدينة آثار ابنية مثل الجامع المعلق قرب المناخلية وكتابات كثيرة ولا سيما حول الجامع وفيه . واعمدة ومدافن للصالحين والمشاهير واضرحة للعلماء في الجهات ما عدا غربي المدينة فانه لم يدفن فيه صحابي

ومن أهم ما فيها هندسة مياهها وتوزيعها على بيوتها واحيائها توزيعاً ذا اصول بضبط واتقان فتدور المياه باقنية واانابيب ناقذة من دار الى اخرى بنظام معلوم وعند آل الشطي في المدينة اصل قاعدة تفريع المياه وتقسيمها يعتمد عليه من يتولون اصلاحها والمياه متفرعة من سبعة أنهر هي أقسام بردى النهر الكبير الذي يتخلل المدينة بفروعه .

وفي هندسة ساعاتها القديمة ومزاولها وابوابها ونقوشها ما يشهد بعمرانها . وقد وصف بعض المؤرخين ساعة من ساعاتها عليها عصافير من نحاس ووجه حية من نحاس وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصافير ونعب الغراب وسقطت حصاة . وباب الساعات من أبواب الجامع يسمى اليوم باب الزيادة

وسور المدينة ضخم تظهر بقاياه في بعض ارباض المدينة وحوله خندق عميق للحصار فضلاً عن أبراجها وقلعتها وآثارها ومرصدها الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ابن القفطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه . ودار العدل التي شيدها نور الدين الشهيد للنظر في ظلم عماله للرعية وكان يجلس فيه لاستماع المظالم والشكاوي وهي الآن قصر المشيرية . وكذلك دار السعادة وغيرها .

ولقد نقلت الدول التي توالت عليها كثيراً من آثارها وطرائفها ومكاتبها فجمعت تلك البقايا اليوم في متحفة هذه المدرسة المعروفة بالعادلية وفي المكتبة الظاهرية ازاءها .

وفي اوائل القرن العاشر للهجرة احترقت سوق باب البريد وأبواب الجامع الكبير كما ذكر النجم الغزي في الكواكب السائرة وتوالى الحريق مراراً قبل ذلك الوقت وبعده

وضربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ٤٦١ هـ بزمن ولاية الأمير حصن الدولة الكتامي فجلا السكان عنها وأقفرت وخلت الغوطة من فلاحيها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين أبطلا المكوس والمظالم وخففاها عن عاتق السكان فجدد عمرانها بعودتهم إليها .

أما عمرانها فانها اشتملت على غوطة عدت من متنزهات الدنيا الأربعة فكان عدد بساتينها في القرن الثامن مائة وواحداً وعشرين ألف بستان كما ذكر شيخ الربوة في كتابه على انها لا تتجاوز اليوم الألفين عداً . وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله : انها خير مغنى على وجه الأرض . وفيها المياه الغزيرة والسهول الفسيحة والخصب الطبيعي فحبذا لو اشترك معه الخصب الصناعي .

ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية أربعمائة ألف وخمسين ألف دينار . وكان ارتفاع دمشق سنة ٢٠٤ هـ ثلث مائة ألف وستين ألف دينار . وفي زمن المأمون كان خراجها أربع مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار .

فلقد كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من أسباب تأخر زراعتها واعراض المواطنين عن معاضدة صناعاتها وحصرها بأسر معلومة انقرضت أو أهملتها من أهم الضربات في تأخر الصناعة ومنافسة المدن والثغور لها بانحطاط تجارتها . ومعلوم أن التجارة تقوم بجناحيها اللذين هما الزراعة والصناعة فصارت مهيضة الجناح متأخرة .

ولعلنا نتسابق إلى رفع شأن أسباب العمران فنعيد إلى هذه المدينة القديمة مجدها أو شيئاً منه بمعاضدة رجال الدولة المنتدبة والحكومة الوطنية وأرباب النهضة استعادة لنجاحها الغابر وتوطيداً للمدنية الحديثة فيها والله ولي التوفيق بمنه وكرمه .

عيسى اسكندر المعلوف

الطبيبان

قال ابقراط : الطبيب الحاذق يصير بحذقه السم دواء نافعاً . والجاهل يصير الدواء سماً ناقعاً .

عثرات الاقلام

- ٦ -

وقولهم (وكان الاحتفال عظيماً ليس فقط في باريز بل في كورسيكا أيضاً) فقط بمعنى (فحسب) وبمعنى (انته) والأمر بالانتهاء عن الزيادة على الشيء انما يكون بعد ذكر ذلك الشيء ولا معنى لتقديمه عليه فالأفصح أن يقال (ليس في باريز فقط بل في كورسيكا) أيضاً على أن استعمال (فقط) في كلام بلغاء الكتاب انما يكون في الاثبات لا في النفي فيقولون (رأيته مرة فقط) أي مرة واحدة لا غير . يقولون (الرزق بيد الله فحسب).

ومنها قولهم (وقد أعيد المأمورون المرفوتون إلى وظائفهم) الرفت كسر الشيء ودقه ولا يصح جعل المأمور مكسوراً إلا بتأويل فالأحسن أن يقال (المأمورون المعزولون أو المنحون) على أن استعمال المأمورين بمعنى العمال أو الموظفين حديث .

ومنها قولهم (سأله عن قدر المشتروات في هذا الشهر) وصوابه المشتريات بالياء لا الواو لأن أصل الفعل يائي (شرى يشري) .

ومنها قولهم (زاد عليه من عندياته كذا و كذا) صوابه من عنده أو من نفسه أو من عند نفسه .

ومنها قولهم (وقد تناول طعام الغذاء على مائدة دولة الحاكم) ومرادهم بطعام الغذاء بالذال المعجمة (طعام الغداء) بالدال المهملة وهو الطعام الذي يكون وسط النهار وكلمة الغذاء (بالمعجمة) بمعنى تغذي الجسم ولا يليق ذكرها في هذا المقام وانما اللائق أن يقال (طعام الغداء) بل الأفصح أن يقال (تناول الغداء) من دون التصريح بالطعام لأن الطعام داخل في معنى الغداء .

وقولهم (وقد رضخ الثائرون للقوة) صوابه خضع أو انقاد الثائرون للقوة لأن رضخ معناه كسر و (رضخ له) اعطاه يسيراً و (رضخ به الأرض) جلده بها .

وقولهم (يجمل التمليق وسيلة لارضاء الحاكم عنه) التمليق مصدر ملّق كفرّح ولم يرد هذا الفعل من هذا الباب وانما ورد (تملقه) و (تملق له) تملقاً وورد أيضاً (ملِق له ملَقا) ثلاثياً فالصواب أن يقال (يجمل التملق) أو الملق الخ .

وقولهم (فلان شديد الحماس وافر النشاط) صوابه الحماسة بالتاء .

وقولهم (وكانت القره قولات العسكرية تؤدي للحاكم التحية) صوابه المخافر أو المسالح جمع مسلحة وهي المكان فيه سلاح والقوم معهم سلاح للمحافظة أو يقال مكان (القره قولات) المراقب جمع مرقبة ومرقب وهو الموضع الذي يقيم فيه الحراس .

ويقولون (اتخذ فلان لنفسه مهنة المحاماة أو التعليم أو الصحافة) وصوابه أن يقال صناعة المحاماة الخ لأن المهنة من مادة المهين والامتهان وفيها معنى الحقارة فالمهنة ما كان حقيراً من الأعمال والصناعات وقريب منها (الحرفة) فالأجدر اذن أن تستعمل (الصناعة) فيما كان شريفاً من الأعمال و (المهنة) فيما كان خسيساً و (الحرفة فيما كان بينهما) .

مكتبة باريس الوطنية

أنشئت سنة ١٦٤٥ م وكان فيها عند انشائها ١٨٢٠ كتاباً فصار فيها سنة ١٨٩٨ نحو ثلاثة ملايين مجلد وهي من أعظم مكاتب الدنيا واغناها بالنفائس ، أول من افتكر بتوسيعها الملك فرنسيس الأول فأمر بنسخ الكتب الموجودة في عصره بأية لغة كانت وأمر المطابع أن تقدم من كل كتاب يطبع فيها نسخة واحدة والفضل في تأسيسها للملك لويس الرابع عشر .

والمكتبة ذات غرف فسيحة للمطالعة والادارة والنسخ وطول أرضها ٢٣١ ذراعاً وعرضها ٥٦ ذراعاً وهي مفتوحة للعموم يومياً ومنذ بضع سنوات كان عدد كتبها ٣ ملايين كتاب منها ٧٥٠ ألف مخطوط قديم و ٣٠٠ ألف مخطّط (خارطة) وكتبها العربية المخطوطة نحو سبعة آلاف بينها نفائس ذات قيمة علمية وأدبية وتاريخية ونوادر قلما توجد في غيرها .

وعدد كتبها الآن هو ضعفا ما في المتحف البريطاني في لندن لأن من نظام مكتبة باريس الجديد ان كل مؤلف أو طابع يجب أن يقدم لها نسختين من كل كتاب . وأما في لندن فلا يقدم إلا نسخة واحدة .

مقتنيات المجمع

معجم طبي فرنسي وعربي = جمع فيه مؤلفه محمود رشدي البقلي الطبيب المصري الاصطلاحات الطبية وطبع بالمطبعة المشرقية في باريس سنه ١٢٨٦ هـ بمجلد واحد صفحاته ٣٥٨ .

معجم الكتاب المقدس (أي التوراة والانجيل) = للدكتور الجراح جورج بوست المتوفى سنة ١٩٠٩ في بيروت . فسّر فيه ما جاء في العهدين من الاعلام والحوادث في مجلدين الأول طبع سنة ١٨٩٤ بمطبعة الأميركان في بيروت وصفحاته ٦٥٥ والثاني طبع سنة ١٩٠١ في ٥٥٩ صفحة مع مخططات (خارطات) بتنقيح الأستاذ جبر أفندي ضومط من أعضاء مجمعنا الشرفيين وهو كثير النفع .

المنجد = معجم مدرسي مصور جمع كثيراً من مواد اللغة بحرف دقيق وترتيب حديث بقلم مؤلفه الأب لويس المعلوف اليسوعي طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٩١٣ في ٧٣٧ صفحة بمجلد واحد وسيعاد طبعه منقحاً بزيادات في مواده ورسومه .

التقريب لأصول التعريب = للأستاذ الشيخ طاهر الجزائري من أعضاء المجمع المتوفى سنة ١٩٢٠ طبع سنة ١٩١٩ في مصر في ١٣٦ صفحة مذيلة بفهارس .

نهاية البهجة = أرجوزة في النحو لابراهيم الشبستري النقشبندي طبعت في ليبسيك سنة ١٩٠٦ في ١٦ صفحة وشرحت بالألمانية في ٣٢ صفحة .

كتاب الاعتبار = للأمير مؤيد الدولة أبي المظفر أسامة بن مرشد المعروف بابن منقذ الكناني من أمراء شيزر المتوفى سنة ٥٨٤ هـ طبع بعناية هرتويغ درنبرغ في ليدن (هولندة) سنة ١٨٨٤ م في ١٨٣ صفحة وعليه تعاليق فرنسية في ٢٠٢ صفحة وله فهارس مفيدة .

النهج القويم في التاريخ القديم = للأستاذ هارفي بورتر الأميركي مدرس التاريخ في الجامعة الأميركانية في بيروت طبع بمطبعة الأميركان سنة ١٨٨٤ في مجلد صفحاته ٥٩٨

اخبار الاعيان في جبل لبنان = للشيخ طنوس الشدياق المتوفى نحو سنة ١٨٦٤ م وهو شقيق الشيخ فارس الشدياق صاحب جريدة الجوائب الشهيرة . ضمن هذا الكتاب

انساب الامراء والمشايخ وبعض الأسر اللبنانية الممتازة وشرح حوادث البلاد طبع في بيروت سنة ١٨٥٩ في ٧٢٠ صفحة بعناية وتصحيح المعلم بطرس البستاني الشهير مؤلف دائرة المعارف وهو من الكتب التي اعتمد عليها مؤرخو لبنان من افرنج وعرب .

خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر = لمحمد امين بن فضل الله المعروف بالمحبي الحموي ثم الدمشقي المتوفى سنة ١١١١ هـ وهو معجم لتراجم الأدباء في ذلك العصر طبع في مصر سنة ١٢٨٤ هـ في أربعة أجزاء الأول في ٥٠٢ صفحة والثاني في ٤٧٥ ص والثالث في ٤٤٥ والرابع في ٥١٢ صفحة .

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء = لاحمد بن محمد بن عبد الله شهاب الدين بن شمس الدين الدمشقي الرومي المعروف بابن عرب شاه وبالعجمي المتوفى سنة ٨٥٤ هـ وهي حكم أدبية على ألسنة الحيوانات نثرها مسجع تعريف مرزبان نامه الفارسية طبعها فريتاغ في مدينة بن سنة ١٨٣٢ في ٢٥٢ صفحة مذيلة بتعاليق لاتينية وفهارس . ولها طبعة أخرى في الموصل .

نبات سورية وفلسطين = للدكتور الاميركاني جورج بوست الآنف الذكر يتضمن نتيجة رحلته في للبحث عن النباتات وأنواعها وهو مصور متقن طبع في بيروت سنة ١٨٨٤ في ٤١٩ صفحة .

تاريخ لبنان = للاب بطرس مرتين اليسوعي المتوفى سنة ١٨٨٠ م تعريب رشيد افندي الخوري الشرتوني المتوفى سنة ١٩٠٧ واصله الفرنسي في عشرة مجلدات مخطوطة عرب منها خمسة أقسام بتصحيح واختصار الاجزاء الثلاثة ملأت ٧٢٤ صفحة بقطع ثمن صغير مطبوعة بمطبعة الرهبنة اليسوعية في بيروت سنة ١٨٨٩ م .

مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية = تعريب الشيخين فيليب وفريد الخازن من ضحايا الحرب الكبرى ضمناها الحوادث السياسية والمفاوضات الدولية في القرن الماضي طبع في ثلاثة مجلدات بمطبعة الارز في جونيه (لبنان) الاول سنة ١٩١٠ في ٤٦٢ صفحة والثاني سنة ١٩١١ في ٤٨٠ والثالث سنة ١٩١١ في ٤٨٠ صفحة .

ومعظمها مأخوذ عن كتب الحكومات ومراسلات السفراء والقناصل واعيان البلاد وفيها فوائد تاريخية كثيرة منقولة عن مخطوطات عند آل الخازن وغيرهم .

هواجس :

الحرية !

هاج نسيم الريح لي أمرها   بالله ياريح ابعثي ذكرها
تجهز الدهر لاقلاقها   ماحمدت في ليلة دهرها
ان تمسك الاقدار عن نصرها   فما أنا مطرح نصرها
أو تعبس الظلماء في خدرها   فانت يابرق انر خدرها
دب مضيض الحب في أضلعي   لا تحسبني طاوياً سرها
صبرت عنها مهجتي ساعة   فلم تطق من بعدها صبرها
بلوت في ظل الصبا حلوها   فهل تراني بالياً مرها
عشقتها والله ادرى بنا   مامس صدري في الهوى صدرها
ظلل اكناف الحمى طيفها   هنيهة ثم ابتغى هجرها

• • •

لاتخفضن يادهر من قدرها   كل كريم رافع قدرها
دحرتها والنفس في اثرها   خارجة ما احتملت دحرها
كم حائر طاحت بـه ضلة   ثم اهتدى لما رأى بدرها
وصاغر الوت بـه ذلة   فعز في اعلائـه امرها
ومستبد راعـه خطبها   يجهد في تهتيكه سترها
لئن طوى استبداده ليلها   فما طوى عن مقاتي فجرها
حصرت يادهر نفوس الورى   وهل اطاقت مهجة حصرها
نجوت من ظلم ومن ظالم   يادهر ان يسرت لي عسرها

• • •

ان تحرجوا الآساد في غابها   هيهات ان تكفيكم شرها

شفيق جبري